# الإنسان الكامل عند إقبال

للأستاذ عبد اللطيف محمد القيسى

تأثر إقبال فى نظريته عن الإنسان الكامل بصوفية العصور الوسطى من المسلمين ، إلا أنه يختلف كثيراً فى نظريته عن الإنسان الكامل عن نظرية الصوفية كما رأيناها عند الجيلى ومدرسه ابن عربى بصفة عامة . وفلسفة إقبال رغم أنها تنبع من روح الإسلام ، إلا أنها جاءت رد فعل لبعض النظريات الصوفية ذات الطابع الفلسفى وخاصة نظرية وحدة الوجود كما جاءت فى مؤلفات ابن عربى .

وقد رأينا الإنسان الكامل عند الجيلى إنسانا صوفيا يهدف فى ترقيه الروحى إلى الفناء فى الله . فذات الولى الكامل بوضعها ذاتا متناهية لا يمكنها أن تقف على قدميها أمام التجليات الإلهية اللامتناهية ، ومن ثم كان السحق والمحق الذاتى فعل أساسى وضرورى فى سبيل بلوغ الإنسان الكامل غايته ومسعاه . «والأنا» أو الذات لا تتمتع بأى كيان حقيقى ، وهى لا تخرج عن كونها رسما فى الكلام ، أو نوعا من الخداع النفسى .

وهذه الأوجه من النظر كما تراها عند الجيلى تتعارض تماما مع ماذهب إليه إقبال فى فلسفته التى أقام على أساسها نظريته فى الإنسان الكامل . فإقبال أقام نظريته على ما أسماه « بالذاتية » أو « خودى » . ويعنى بالذاتية مركز الشعور الذاتى للفرد وما يدور حوله من مجالات وكيفيات متفرقة غير محدودة ، وتتجلى الذاتية فى الإنسان فى وحدته الوجدانية والشعورية التى تؤلف بين رغباته وعواطفه وأفكاره . فالنفس تتكشف عما يسميه بالحالات العقلية ، وتبدى هذه الحالات ضروبا مختلفة من النشاط لا تجمع بينها وحدة أو رابطة ، وحين تتوحد فى ظل الأنا أو الذات يمكنها أن توحد

غاياتها وأهدافها ، ويمكنها أن تسير قدما من الفوضى إلى تحقيق النظام واستكمال حقيقتها المنشودة .

فالقوى النفسية المختلفة عاجزة عن أن تحقق كمال الذات بمفردها ، والعمل الحقيقى فى سبيل تحقيق الكمال إنما هو من صميم فعل الذات أو « الإنية » التى تعمل على جمع شتات الميول والعواطف والأفكار عن طريق تحقيق وحدة نفسية قوية ومتماسكة .

غير أن تحقيق الذاتية ليس قصرا على الإنسان وحده ، ولكنها تؤلف حقيقة هذا الكون ، وهى العنصر المشيد لأركان العالم ، وفيه تتجلى حقيقتها وأسرارها . فكل ما فى الكون ذوات مفردة تتمتع بصفة الوجود المستقل والكيان والنفس الموحد مهما كانت عليه من ضآلة الشأن فى ميزان الوجود . فكل ما فى العالم ابتداء من ذرة المادة إلى حركة الفكر الطليق إن هو إلا مجلى من مجالى الذات العظمى ، أو العلى الأعلى ، وإن كان يبدو هذا التجلى ضئيلا فى بعض الموجودات ، فإنه يبلغ كماله وأوجه فى الإنسان ، وهذا وحده يقدم لنا تفسيراً لسر عظمة الإنسان فى خلقته . غير أن حياة الإنسان لا تقتصر على هذا الضرب من الكمال المشترك ، وإنما تتضمن نوعا خالدا من الصراع والجهاد فى سبيل اكتمالها وتحققها بذاتيتها .

فالعالم كما يبدو ، بما فيه من ذوات فرده لا يبدو كاملا فى حقيقته ، إذ أن اتصافه بالكمال رهن بتحقيق الذاتية فى الحياة وفى الإنسان ، ذلك التحقق الذى يكفل له نظاما يحقق وحدة كل ذات ويؤكد استقلالها وحدتها .

أما فى حياة الإنسان لتحقق الذاتية وليد شعور الفرد بحقيقة نفسه شعورا مباشرا وعلى هذا القدر من الشعور تتفاوت درجة كماله الحقيقى فرغم قدرة الإنسان على إقامة علاقات متبادلة وصلات مع الذوات الأخرى ، إلا أنه يتمتع بدرة خاصة من الشعور هى وحدها التى تؤلف حقيقته كموجود بشرى ، وهى التى تغذى كيانه بوصفه ذاتا مفردة .

ونظرة الشرقيين تختلف عن طبيعة أهل الغرب فى تقديرهم الذاتية أو الإنية . فنحن نجد فى الشرقيين من يميل إلى اعتبار الذات أو « الأنا » ضربا من المجاز ، أو الخيال أو الخداع ، أو هى فعل من أفعال الشيطان . وتجلى هذا الإعتبار كما كثر مايكون وضوحا فى تاريخ الفكر الهندى . إذا استتبع هذا القول الدعوة إلى الخلاص من هذا الخداع ، وإذا كان العمل مما يؤكد الإنية ويحدد مصيرها ، فترك العمل هو وحده الذى يحدد طريق الخلاص .

أما رسالة الإسلام فهى فى صحيحها دعوة صريحة إلى العمل ، والعناية بالعمل تفوق ما عداها فى دعوة القرآن ، فالأنا أو الذات لا تنال الخلود إلا بالعمل . غير أن ما حدث فى الفكر الهندى له مثيل فى الفكر الإسلامى . فيرى إقبال أن نفس الفكرة التى فسر بها « شنكر أجارية » « كتاب « الجيتا » طبقها الشيخ الأكبر ابن عربى فى تفسيره للقرآن . إلا أن أثر هذا كان أشد وأخطر عند المسلمين حين خاطب شعراء الفرس بخيالهم الدقيق قلوب المسلمين ووجدانهم ، فأشاعا هذه المسألة بين العامة حتى سلبوا الأمة الإسلامية الرغبة فى العمل :

أما فى الغرب فكان لهم من طبيعتهم وميلهم إلى العمل خير واق ، وحين ظهرت هذه الفكرة عند الفيلسوف الهولندى اسبيتوزا وفلاسفة الهجلية المحدثة من الإنجليز ، كانوا أسرع إلى نبذها . وتلك الفكرة التى يعنيها إقبال هى وحدة الوجود التى ظهرت فى التصوف الإسلامى على يد ابن عربى وتلاميذه وفلسفة إقبال تنبذ أى وحدة أو عمومية أو كلية فى الكون وفى الحياة ، فكل ما فى العالم إن هو إلا ذوات فردة والحياة ما هى إلا تجلى الذات العظمى ، والإنسان حين تتجلى فيه الذاتية تسمى « أنا » أو ذاتا وسبيل كماله الحقيقى هو تأكيد هذه الذات دون أن يعمل على أفنائها أو الخلاص منها ، وتخلى الإنسان عن ذاته وإنيته إنما يعنى الفناء والموت بالنسبة له . وكلما أمكنه أحكام عقدة ذاته كلما كان أقدر على مقاومة كل فناء أوفساد . وهذا ما توضحه لنا جلياً سيرة الرسول عليه السلام . وقد عبر الأدب

الفارسى عن ذلك فى صورة أدبية رائعة تصف لنا رؤية النبى للنور الإلهى :

« صعق موسى لما تجلى له قبس من نور الحق
وأنت ترى جوهر الحق نفسه فى تبسم . . »

وهذا المعنى قد صوره القرآن فى وصفه رؤية النبى للذات الأولى بقوله « مازاغ البصر وما طغى » . فالذات القوية تعلو على الفناء والمحو الذاتى ، ولا تتلاشى بأى نحو من الأنحاء . إذ أن فى قوة الذات وتفردها ما يحول بينها وبين أن تمحى فى خضم أوسع ، أو محيط شامل . حتى أن الفناء الكلى الذى يسبق يوم الحساب مباشرة لا يمكن أن يؤثر فى كمال تلك الروح أو يزعزع من ثباتها . يقول إقبال إحكم نفسك فى حضرته ولا تفن فى بحر نوره ، فإذا كنت ثابت الروع فى حضرته فاعتبر نفسك حياً باقياً مثله » .

ومن هنا يتضح لنا سمات الإنسان الكامل عند إقبال ، ويتبدى لنا مدى تعارضه مع عقيدة الفناء عند صوفية وحدة الوجود فليس هدف . هذا الإنسان عند إقبال هو بلوغ درجة الفناء فى الذات العظمى ، بل على العكس من ذلك هدفه الإبقاء على ذاته المتناهية ، وعمله الدائم على إذكاء شعلتها وذلك بألا تفنى القطرة فى المحيط أو تتلاشى فى خضم واسع لانهائى .

ويذكر إقبال أن مذهباً كهذا يتعارض وفلسفة وحدة الوجود ، وثمة نقد قد يثيره أتباع هذا المذهب : كيف للذات المتناهية أن تقوم بعيداً عن الذات اللا متناهية ؟ وهل الذات المتناهية يمكنها أن تحتفظ بتناهيها إلى جانب اللا متناهى ؟ . . ويرى إقبال فى مثل هذا الإعتراض دلاله على سوء الفهم لحقيقة اللا متناهى ، فليس معنى اللاتناهى أنه قابل للأمتداد إلى غير نهاية ، بل حقيقة اللاتناهى تكون فى القوة لا فى الإمتداد . وذاتى بوصفها قوة يجب أن تكون متمايزة عن الذات غير المتناهية وإن لم تكن منعزلة عنها . مثلنا فى ذلك مثل النظام المكانى الزمانى ، فإذا نظر إلى بإعتبارى إمتداداً كنت حالا فى هذا النظام مشمولا به . أما إذا إعتبرت

«قوة» فإنى أرى النظام المكانى الزمانى على أنه «غير» أو «آخر» مواجه لى، متمايز عنى تماما . وكذلك فى صلتى بالله ، أنا متمايز عنه ، ونظرتى إلى الله بإعتباره « غيرا » أو «آخر» ، رغم إعتمادى عليه فى حياتى وصلتى الوثيقة به . [ تمد التفكير الدينى ص١٣٦

ويكون الإنسان كاملا كلما ازدادا قربا من الله ، ولن ينتهى هذا القرب عن إقبال إلى التلاشى والفناء فى ذات الله ، بل إلى التخلق بأخلاق الله كما قال الرسول . وسوف ينتهى هذا التخلق إلى أن يجعل من الإنسان الكامل فريدا بغير مثيل كما أن ذات الحق لامثل لها .

وحين يبلغ الإنسان مرتبة الكمال فسوف يكون ممثلا للخالق فى نفسه ، وحاملا لواء النيابة الإلهية فى الأرض . وحين تصل إلى درجة الخلافة هذه ، تكون قد توحدت فى الإنسان الكامل شتى عناصر الفكر والعمل شيئاً واحدا فى ظل وحدة الذات وقوتها . وعلى هذا لن تقف الصعاب أو العراقيل أمام الذات الكامله ، بل يغدو كل شىء وكانه سخر لها ، طوعا لأمرها . ولن تكون المادة أو الطبيعة شرا يعوق التقدم النفس والتطور الروحى للذات . لقد ذهب كثير من الفلاسفة والحكماء فى الغرب والشرق إلى اعتبار المادة مصدر كل شىء ، وأن الطبيعة مصدر فياض للشرور ولكل اضطراب ونقص وفوضى فى العالم يقتصر هذا على القدماء فقط بل ومن الحدثين من يذهب إلى اتهام الطبيعة أو المادة هذا الإتهام .

غير أن إقبال ، تبعا للنظرة الإسلامية ، لا يقر هذا الرأى ، ولا يرى فى المادة أى عنصر من عناصر الشر ، بل هى فى الحقيقة مصدر عون للذات فى تقدمها ورقيها وإن كانت المادة تمثل بعض عقبات أمام « الأنا » ، فإن الأنا أوالذات لا تتحطم أو تهوى إلى اليأسى ، بل على صخرتها تنساب قواها المحبوءة ، وتفيض بنبعها العذب . فليست المادة مصدر شر للذات ، بل كثيرا ما تكون ملهمة إياها بالمعانى والصور . وسمو الذات وارتقائها لا يكون بإستبعاد المادة ، أو محاولة العلو عليها ، وإنما يتحقق هذا السمو بإنبثاق عالم جديد ينبع من أعماق الذات ولا يأتيها من الخارج ؛ ومصدر

هذا النور أو الوحى النابع من أغوار الذات ليس مجانبا لعالم المادة ، بل هو متغلغل فيه كامن فى أعماقه . وهذه نظرة الإسلام الصحيحة كلما يراها اقبال « وعلى هذا توكيد الروح الذى سعت إليه النصرانية يتحقق لا باستعباد القوى الخارجية التى تخترقها أنوار الروح بالفعل — وإنما يتحقق بتنظيم علاقة الإنسان بهذه القوى ، على هدى النور المنبعث من العالم الموجود فى أعماق نفسه » . [ تجديد . . . : ١٦ ] .

وهكذا لن يكون من المادة عائقا يعرقل الذات فى تطورها ورقيها ، بل ستكون وسيلة طيعة فى يدها ، ومصدر وحيها وتألقها الروحى فى العالم . وحين تذلل الصعاب أمام الذات فإنها تبلغ مبلغا عاليا من الحرية والإختيار ، فتخطى الذات لشتى العقبات إنما يعنى قدرتها واستقلالها ، وتخلصها من الحرية ونزوعها إلى الحرية . وأهم مايميز الذات أنها ذات حرة مختارة ، وهذا بالفعل مامارسه الإنسان فى أول نشأته ، وماخبر به لنا آدم فيما يسمى بالمعصية أكبر دليل على اختيار الإنسان وحريته فى التصرف .

وتحقق الذات بالحرية وقدرتها على الإختيار رهن بقوة الجهد وشدة النضال الذى مارسته فى صراعها المستمر للعراقيل والمصاعب .